الإبداع الفلسفي و رهانات المعطى التداولي
عند طه عبد الرحمن

د . بشير خليفي

شعبة الفلسفة - معسكر الجزائر

غالبا ما يوصف المنتج الفلسفي في العالم العربي و الإسلامي بنزوعه نحو التقليد ، وهو الأمر الذي يفسر بمركزية أوروبية أسست لأصول و منطلقات التفلسف بما يتماشى وخصوصية السياق الحادث أساسا من التطورات التاريخية و الاجتماعية .

لقد اتجهت بعض النزعات الفلسفية إلى الاحتفاء بهذه المركزية من خلال الإقرار بالمواءمة الحاصلة بين التفلسف كممارسة فكرية حرة و بين المجال التداولي الغربي الذي يوفر جملة الشروط المؤسسة و المشجعة للتفكير .

بيد أن هذا البقول لا يتماشى و المنطلقات الفلسفية نفسها التي تأبى أن تحدد بمسطرة تفكير واحدة ، أو أن تستجيب لنموذج تعسفي يفرض على الأفكار أن تأتي وفق شاكلة محددة سلفا لكي تعطى ضمانة الصلاحية و القبول .

هنا يحق لنا أن نتساءل عن الأسباب الدافعة لتشكيل و نشر هذا التصور المتمثل في ربط فرادة الإبداع الفلسفي في مجتمعاتنا بما تقرر في ضوء المفاهيم الغالبة و الرائجة في الفكر الغربي ، متوسمين في ذلك بالإسهامات الفكرية التي أنجزها الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن عبر مشروعه المعرفي الذي عمد من خلاله إلى تهيئة الظروف و الأسباب النظرية الجامعة بين الإبداع الفلسفي و الارتباط بالمجال التداولي [1].

1 – طه عبد الرحمن ، حوارات من أجل المستقبل ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 2003 ، ص 37 .

طريق الإبداع الفلسفي

لقد شكل عنصر التمكن من الإبداع الفلسفي في الفلسفة العربية و الإسلامية هاجسا مركزيا لدى طه عبد الرحمن ، خصوصا و أن الإنتاج الفلسفي في هذه المجتمعات ظل رهينا للتقليد ؛ تقليد المنقول من جهة و تقليد الغرب من جانب آخر .

إن احتفاء الخطابات المعرفية الغالبة في مجتمعاتنا بهذه الاتباعية عائد بالأساس إلى غياب محرك الإبداع في الذات العربية المتفلسفة ، و لن يكون ذلك في نظر طه عبد الرحمن بعيدا عن تشكيل العلامات الفكرية للاستقلال الفلسفي المؤدي للإبداع ، و المرتبط أساسا بفكرة الانقطاع [1] .

دون أن يعني ذلك تبني قطيعة نهائية ، فالتداول المعرفي في سياقه الأفقي مع الفلسفة الغربية المعاصرة أو في سياقه الشاقولي مع التراث الفلسفي العربي و الإسلامي يبقى أمرا بالغا الأهمية لتشكيل الذات الفلسفية المبدعة ، بل أن الإبداع الفلسفي في أهم شروطه رهين بهذا الارتباط المفضي إلى معرفة بالأفكار ماضيها و حاضرها .

و هو التصور الذي يؤكده طه عبد الرحمن في تفصيله لشروط الإبداع كحالة إتيان جديد بمقابل مواجهة مانع بغرض التحرر منه .

فالتفاعل مع أحداث العصر و تمثل أبعاد الوضع التاريخي ، زيادة على توفر الإمكانات المادية اللازمة كلها شروط أساسية لتحقيق الإبداع في الاشتغال الفلسفي على مستوى القول و الموقف.

و طالما أن الفلسفة ترتبط بالقول أكثر ، كما يرى طه عبد الرحمن فإن استقامة القول في نظره تؤدي بالضرورة إلى الإبداع الفلسفي ، وذلك باستعاب طريقة لتصور

1 – طه عبد الرحمن ، فقه الفلسفة : الفلسفة و الترجمة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت والدار البيضاء ، ط 2 ، 2000 ،ص 49 .

المضمون و صنعه عن طريق إخراجه في أشكال بلاغية لا غنى عنها ، خصوصا وأن التفلسف لا يحيل إلى البيان أكثر من إحالته إلى كتابة تعد عملا يعبر عن نسيج معرفي يخرج منه النص مقروءا في لغة طبيعية معينة [1].

إن مشكلة الفلسفة في العالم العربي و الإسلامي تحيل بالضرورة إلى مشكلة الإنسان الذي لم يستطع أن يحقق الاستقلال الحضاري بغرض إحداثه للوثبة التي تمكنه من تحقيق ذاته ، و بالتالي إيجاد المعنى المتمثل في فهمه و سيطرته على واقعه ، الأمر الذي أدى إلى الوقوع في العقم و التكرار بالنظر أساسا إلى المنجز الفلسفي .

و هو الاحتمال الأغلب الذي ينتصر له طه عبد الرحمن في ضوء إقراره بصعوبة الإشارة إلى وجود فلسفة عربية إسلامية على مستوى المنطلقات و التفصيلات ، طالما أن المتفلسفة العرب في عمومهم لا يتوانون عن تقليد ما هو حاصل أوروبيا كشرط أساس للانتساب للحداثة ، أو لما هو تراثي كشرط للاتسام بالاستقامة و امتلاك الحقيقة و ذلك بالاحتفاء و الاحتماء بتاريخ طويل من الإيديولوجيا و حكايات اليوتوبيات الماضية و الآتية بالشكل الذي يمد الضعفاء في المجال التداولي الوطني ، العربي و الإسلامي بالمتنفس الهائل المتمثل في خزان سيكولوجيا التعويض و التلذذ بالقوة .

لذلك يعترض طه عبد الرحمان على الكونية الفلسفية و ذلك لعدم توفر الطابع الكوني فيها ، فمن جهة إنها مرتبطة بسياق تداولي قومي مفروض بمفهوم سكوني يختزل معطيات الصيرورة و التعدد ، و من زاوية أخرى إنها مسألة تعميمية خاضعة لمعايير لا تمت إلى الفلسفة بأية صلة [2] .

---

1 – طه عبد الرحمن ، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدار بيضاء ، ط 1 ، 2002 ، ص 130 .

2 - المرجع السابق نفسه ، ص 66 .

سؤال الحداثة عند طه عبد الرحمن

عادة ما تحيل الحداثة في معناها الفلسفي إلى ذاك المنجز المتعدد الأبعاد الذي حدث في عصر الأنوار من خلال الانعطاف الديكارتي بإعلاء أهمية العقل والمحافظة عليه من تصورات الشك المذهبي ، كما تشير أيضا إلى إسهام إمانويل كانط في فلسفته النقدية من خلال نقده ابستمولوجيا الأخلاق وكذا الحكم الجمالي[1].

أما من زاوية الأدب فإنها تشير لذلك التطور الحاصل في كتابة النص الأدبي ، و ذلك بتخليصه من إكراهات و تعقيدات الضرورات الكلاسيكية الملحة على الشكل خصوصا[2].

و الواقع أننا حينما نتحدث عن الحداثة عند طه عبد الرحمن لا نحيل إلى ما يقابل القدامة و لا على المنجز الغربي بحرفيته و تمامه ، و إنما باعتبارها حدثا قد حصل في الزمان و المكان شريطة الالتزام بالجدة و الإبداع و كذا الإيغال في التجربة الإنسانية التي ترفع من شأن الإنسان بكونه فردا عاقلا ، حرا و مسؤولا .

إن توصيف الحداثة عند طه عبد الرحمن لا يتعلق باجترار مكرور لهذا المنتج في سياقه الأوروبي ، بل يمثل سعيا أصيلا لفهمه داخل المجال التداولي الإسلامي ، و ذلك بإعطائها بعدا أخلاقيا بالشكل الذي يمكنه من إحداث نقطة انطلاق للإبداع العام ، و بالتالي إمكانية إحداث اليقظة عند العرب و المسلمين عن طريق الحداثة الأخلاقية أولا ، في ظل العسر الشديد للقبض على دعائم الحداثة كمنجز علمي و تكنولوجي ، هذا ما دفعه إلى نقد الحداثة الرائجة القائمة على أساس الفردنة و التحرر و كذا إنكار القيم بالشكل الذي يعيق الفرد في الجغرافيا الوطنية و العربية و الإسلامية من معرفة ذاته و التعبير عن خصوصيتها ، الأمر الذي يغيب حضور العقل في شكله المسدد و المؤيد ، و بالتالي يصرف إلى حين المعرفة بالمقاصد النافعة[3].

1 - Ted Honderich ,The Oxford companion to philosophy, Oxford university press , U.S.A. second edition, 2005,p 617 .

2 - Gray martin , A Dictionary of literary terms, Longman York press ,Lebanon ,2 edition,1988,p128.

3 – طه عبد الرحمن ، سؤال الأخلاق ؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدار البيضاء ، ط 2 ، 2005 ، ص 71 .

إن دعوة الانتماء إلى الحداثة في نظر طه عبد الرحمن تؤدي بشكل ضروري إلى الإقرار بأثفية الإبداع ، إذ لا يعقل أن يتم الحديث عنها في شكل مائع و هلامي بدون ربطها بالمعطى التداولي ، باعتبارها نتاجا لظروف ثقافية ، اجتماعية ، سياسية و تاريخية خاصة ، لذلك جاءت دعوة طه عبد الرحمن لاستئناف العطاء المعرفي الإسلامي [1] .

و ذلك من خلال مشروع فكري يتحدد أساسا من خلال المنطلقات و المقاصد ، كما يتوسل المجال الفلسفي كفضاء مؤطر لهذا الاستئناف ، خصوصا و أن الظاهرة الفلسفية في تصور طه عبد الرحمن لا يمكن ردها على واقعة واحدة ، إذ ليست هي ظاهرة معرفية صرفة و لا هي ظاهرة لغوية محضة ، و إنما هي واقعة متعددة الوجوه [2] .

و لأجل إعطاء مشروعه الفكري سبل الانتشار و الاستمرارية عمد طه عبد الرحمن إلى استقصاء تفاصيل فقه الفلسفة كمعرفة تتخذ من الفلسفة موضوعا لها بالشكل الذي يبحث في أساليب ترقيتها و تطويرها ، معتمدا في ذلك على أسلوب متفرد في الإقناع اجتباه أولا من تمرسه في المنطق الرياضي و كذا إلمامه بنظريات الحجاج المختلفة ، فكتاباته تشي بالجهد الكبير الموظف في البناء النظري و المعتمد أساسا على الدقة الكبيرة في مزاوجة الاعتناء في الجمع و التأليف بين الكلمات و العبارات من جهة و كذا المفاهيم و التصورات من زاوية أخرى [3] .

إن دعوة طه عبد الرحمن للخروج من القول الفلسفي الخالص إلى القول الحي [4] ، جاءت بالأساس لأجل إخضاع مفهوم الحداثة في سياقها الغربي للقيم العملية التي يتميز بها المجال التداولي العربي ، مع الدعوة لتكريس فعل الانتقاد كحالة ملازمة للاشتغال الفلسفي بدرء إكراهات الفلسفية الجامدة التي تدعو إلى الانسلاخ الكلي من

1 – طه عبد الرحمن ، حوارات من أجل المستقبل ، ص 62 .
2 - طه عبد الرحمن ، فقه الفلسفة : الفلسفة و الترجمة ، ص 21 .
3 – كمال عبد اللطيف ، أسئلة الفكر الفلسفي في المغرب ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدار البيضاء ، ط 1 ، 2003 ، ص 134
4 – طه عبد الرحمن ، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي ، ص 106 .

تراث الذات الفلسفي ، و بالتالي تدخل في إطار الاستسهال و الاستلاب للغوايات المعرفية التي اقتضاها الغير أن تكون .

لصالح حداثة فلسفية حية تحتفي بالمنطلقات ، و ذلك بخروجها عن معطى اللوغوس أو العقل في صيغته المجردة كما جاء في المدونة الفلسفية اليونانية لصالح عقل يبصر و يتبصر و يعقل بصره و تبصره ، كما يقبل التحول و التجدد ، و يتسم بخاصية الفعل في المكان من منطلق حمله لمسؤولية التدبر بعيدا عن كل وصاية أو إكراه [1].

رهانات المعطى التداولي

ربط طه عبد الرحمن السؤال الفلسفي بالمسؤولية المعبرة خصوصا عن الجدية و الجدة ، بالمعنى الذي يشترط من طارحه أن يتوفر على الصدق و المقصدية و ذلك لتجاوز العبثية و الابتذال من دون أن يعني ذلك إكراها أو تعسفا .

و الحال هو أن طه عبد الرحمن جاء معارضا لكل فلسفة تأسيسية استبدادية تدعي الانفراد و الصلاحية الدائمة ، و ذلك لصالح اغناء الحوار الفلسفي في إطار مطارحة فكرية يتم فيها الإذعان للصواب تماشيا مع قوة الحجة .

لذلك اتجه عبر اجتهادات معرفية عديدة إلى ضبط قواعد الاستدلال و كذا تأصيل الحوار عبر إبراز فضائله و شروط إغناءه بالشكل الذي يسمح بتقليص شقة الخلاف حينما تدخل الأطراف في عملية الاستفادة المشتركة طالما أن الأمر يستحيل إلى " نظر من جانبين " [2] .

---

1 – طه عبد الرحمن ، روح الحداثة : المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدار البيضاء ، ط 1 ،2006 ، ص 36 .

2 – طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدار البيضاء ، ط 3 ، 2007 ، ص 20 .

و من ثمة لا يمكن في نظر طه عبد الرحمن أن نموضع الفلسفة وفق إطارها التداولي بدون إبداع حقيقي يرتبط بالمنطق كعملية محايثة تضبط آليات الخطاب في مدى ترتيبه و حجاجيته ، كما يرتبط أيضا بما استشكل من المفاهيم و الوقائع داخل المعطى التداولي ليجيء التفلسف حالة واعية مساهمة في حل معضلات الفرد و تطوير أداءاته ، و هي الدعوة الصريحة التي دعا طه عبد الرحمن الفيلسوف إلى الإبداع و الالتصاق بالمجال التداولي أي بمجاله اليومي في مقوماته ومحدداته [1] .

و يحضر المعطى التداولي في خصبه و نمائه عند طه عبد الرحمن من خلال عملية الترجمة كفعل تأصيلي يعمد صاحبه إلى الخروج عن التقليد الحرفي و ذلك بتشكيله لترجمات تأخذ على عاتقها المتلقي العربي في مجاله التداولي بالطريقة التي تكون معه الترجمة موصولة لذهن القارئ و نافعة له و ذلك بتجاوبها مع المقاصد المرتبطة أساسا في النهوض بقدرة المتلقي على التفلسف [2] .

إن الفلسفة الحية التي قصدها طه عبد الرحمن تعبر عن رغبة في تبيئة و استنبات الجوانب المعرفية في معطاها التداولي ، الأمر الذي يجعلها أكثر قربا من الفهم و الإفهام باعتبار معالجتها للراهن و المعيش ضمن إطار السياق المكاني و الزماني الذي يحيا فيه الأفراد ، طالما أنهم هم المعنيون الذين يعانون من الأزمات الشديدة ، و لعل أبرزها التخلف في تحصيل منجزات العلم .

من زاوية أخرى لا حياة للفلسفة العربية في نظر طه عبد الرحمن ما لم يقع وصلها بالأدب العربي قديمه و حديثه [3] ، و ذلك لاحتوائه لأهم الإشارات و ملامح المعطى التداولي في تطوره و تنوعه ، و كذا لضرورته في تزويد الخطاب الفلسفي على مستوى القول و الفعل بأجمل الأساليب و أجودها ، الأمر الذي يعطي للمتفلسف مهارة زائدة للتعامل

1 – طه عبد الرحمن ، حوارات من أجل المستقبل ، ص 37 .
2 – طه عبد الرحمن ، فقه الفلسفة : الفلسفة و الترجمة ، ص 353 .
3 – طه عبد الرحمن ، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي ، ص 107 .

مع صراع المنطق و البلاغة .

و لا حياة للفلسفة الإسلامية – في نظر طه عبد الرحمن – إن هي لم تحتف قولا وممارسة بالفعل المسدد و المؤيد بالشكل الذي يسمح بالإبداع المستمر للمفاهيم الإجرائية من داخل هذا التراث ، الأمر الذي يعطي للمجال التداولي الإسلامي الأحقية في إبداع حداثة أو يقظة تأخذ على عاتقها " إتمام ما نقص في سابق الأزمان من المكارم "[1] .

أخيرا :

لا مشاحة أن الفلسفة الحية التي قصدها طه عبد الرحمن هي نتاج تشكيل مستمر لعلاقة فهم و عطاء متبادل بين الاستقلال الفلسفي المبدع من جهة و المعطى التداولي من جانب آخر .

و هو مشروع أخذ على عاتقه إبداع القيم النافعة خارج إطار فعل الاجترار ، تحديدا اجترار ما قاله الأولون و الآخرون .

و هو المطلب الذي انبنت عليه الفلسفة الطهائية بالدعوة إلى أحقية كل قوم بالتفلسف بما يتماشى و مقتضى خصوصيتهم الثقافية شريطة الاعتراف لغيرهم بذات الحق .

خصوصا و أن المعطى التداولي بالمعنى الذي أشار إليه طه عبد الرحمن لا يشكل عائقا حقيقيا و ذلك لسببين اثنين : الأول أن المعطى التداولي واقع ، و الواقع حادث لا ضرورة فيه ، في حين يشير الثاني إلى درس تاريخي في السيرورة و الصيرورة مفاده أن مسيرة ألف تبدأ بخطوة واحدة ...

1 – طه عبد الرحمن ، روح الحداثة : المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية ، ص 18 .

المراجع :

أ – بالعربية :

1 - كمال عبد اللطيف ، أسئلة الفكر الفلسفي في المغرب ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدار البيضاء ، ط 1 ، 2003 .

[2] - طه عبد الرحمن ، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدار البيضاء ، ط 1 ، 2002 .

3- طه عبد الرحمن ، حوارات من أجل المستقبل ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 2003 .

[4] - طه عبد الرحمن ، روح الحداثة : المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدار البيضاء ، ط 1 ، 2006 .

[5] - طه عبد الرحمن ، فقه الفلسفة : الفلسفة و الترجمة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت والدار البيضاء ، ط 2 ، 2000 .

[6] - طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدار البيضاء ، ط 3 ، 2007 .

[7] - طه عبد الرحمن ، سؤال الأخلاق ؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت و الدارالبيضاء ، ط 2 ، 2005 .

ب- بالانجليزية :

[8] - Ted Honderich ,The Oxford companion to philosophy, Oxford second edition, 2005. university press , U.S.A.

[9] - Gray martin , A Dictionary of literary terms, Longman York press ,Lebanon , 2 edition,1988.